اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٣) | الآيات [١٠ : ١٨]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، نستكمل بإذن الله -عز وجل- ما بدأناه في وقفات مع سورة الأعراف، كنا قد توقفنا عند الآية العاشرة عند قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف ١٠]، تكلمنا في المرة الماضية عن:

- "كيف يتعامل الناس مع الرسل"
- ثم أخبرنا الله -عز وجل-: أن ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف ٣]
- ثم أخبرنا الله -عز وجل- أن كثيرًا من القرى أهلكهم الله -عز وجل- لأنهم لم يتذكروا ولم يستجيبوا للرسل.
- ثم أخبرنا الله -عز وجل- في انتقال إلى مشهد في الآخرة وهو مشهد السؤال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾[الأعراف ٦]
- ثم الله -عز وجل- يقص عليهم بعلم.
- ثم ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[الأعراف ٨].
- ثم أخبرنا الله -عز وجل- بانقسام الناس إلى فريقين حسب موازينهم الشرعية، وليس حسب موازين الناس؛ فالناس تنقسم في الدنيا إلى غني أو فقير، أو إلى متعلم أو أمّي، أو إلى وظيفة معينة؛ موظف أو غير موظف، هناك تقسيمات مختلفة للناس، لكن التقسيمات في الآخرة تختلف، فهناك تقسيمات ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾[الأعراف ٩] هؤلاء في قسم، وهناك ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾[القارعة ٦] أسأل الله -عز وجل- أن أكون وإياكم منهم ثم أخبرنا الله -عز وجل-: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾[القارعة ٨].
- ثم قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[الأعراف ١٠]، تكلم المفسرون في علاقة هذه الآية بالآيات السابقة، فاختلفوا بالمراد من الواو، هل هي واو عطف فتعطف على معنى معين؟ أم تعطف جملة على جملة؟ أم هي واو استئناف وهي الواو التي تبتدئ معنًى جديدًا أصلًا؟

- قال بعضهم في ذكر علاقة هذه الآية بالآية السابقة: أن من أسباب غرور الناس وسقوطهم في الابتلاء وفي الامتحان أن الله -عز وجل- مكَّن لهم في أسباب الدنيا، فمن أسباب أن كثيرًا من الناس لا يشكر ولا يتذكر ويسقط في ابتلاء إجابة الرسل وكيف يتعامل مع الآيات -وكما قلنا

سابقًا فهذا من محاور سورة الأعراف- أن كثيرًا من الناس يسقطون بسبب فتنة التمكين والتحكم في أسباب الأرض. وسنتكلم عن معنى التمكين، فنحن الآن نتكلم عن العلاقة بين هذه الآية والآيات السابقة، فقال بعضهم أن هذه إشارة إلى أن كثيرًا من الفِطَر التي انحرفت عن منهج الله -سبحانه وتعالى- كانت بسبب هذه الدنيا، بسبب هذه النعمة، فبدلًا من أن يشكروا هذه النعمة كانت هذه النعمة وكان هذا التمكين فتنة لهم.

- وقال بعض المفسرين -علاقة الآيات- أنه كما أن الله -عز وجل- أنذرهم وهدَّدهم فكذلك يذكر لهم النعم. فهكذا القرآن مثاني يأتي بالترغيب والترهيب، فأخبرهم الله -عز وجل- أنه كما أهلك بعض الأمم السابقة؛ فكذلك أنعم علينا ومكَّن لنا في الأرض وأعطانا من النعيم -سبحانه وتعالى-، وخاصة أن بعض المفسرين قال بأن هذا الخطاب خاص بقريش ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأن "الأرض" هنا هي مكة، فقال بعض المفسرين: كما أن الله -عز وجل- هدد وأنذر أهل مكة بإهلاك الأمم السابقة كذلك ذكَّرهم بنعمة التمكين في الأرض التي فيها البيت الحرام، وكيف أن الله -عز وجل- جعل هذه الأرض يُجبَى إليها ثمرات كل شيء وهي أصلًا أرض غير صالحة للزراعة، وكيف أن الله -عز وجل- سهَّل لهم مجيء الرزق إليهم بدون تعب وأنه أجبر -كونًا- القوافل أن تتجه في سيرها إلى مكة.

إذًا قال بعض المفسرين: إن علاقة هذه الآية بالآيات السابقة أن من أهم أسباب الفتنة هو التمكن في الدنيا، وقال بعضهم: إنه تنويع بين الترهيب والترغيب، فكما أن الله -عز وجل- ذكر الترهيب، فههنا يذكر النعم على أهل الإيمان.

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ قيل: إن التمكين في الأرض ليس فقط كتمكين الله -عز وجل- لذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الكهف ٨٤]، فقد قال بعض المفسرين أن هذا التمكين مختلف عن ذاك، فهناك: تمكين تسخير وإعطاء قوة حقيقية لذي القرنين يتحكم من خلالها بأسباب الأرض، أما التمكين هنا فهو إعطاء الله -تعالى- للإنسان الآلات والأدوات التي لو استطاع أن يستعملها حقًا لوصل إلى التمكين في الأرض، أي أن الله- سبحانه وتعالى- خلق عقل الإنسان وجعل له قدرةً على الوصول -بكثرة التجارب والتعاون والتشاور- إلى السيطرة على الأرض.

والله –عز وجل– جعل هذه الأرض أيضًا قابلة لأن يُمَكَّنَ فيها الإنسان، لِمَ؟ لأن الله –عز وجل– جعل هذه الأرض قائمة على أسباب ثابتة، أي جعل من سنته –سبحانه وتعالى– أن تكون سننه في الكون ثابتة لا تتغير، فالحديد مثلًا ينصهر عند درجة حرارة معينة والماء يتبخر عند درجة حرارة معينة، وخواص معينة للرياح وللماء وللأرض وللصخور. فهذه السنن ثابتة، فإذا اكتشفها الإنسان وفكَّر كيف يتعامل معها وكيف يستغل الرياح والأنهار ودوران الشمس وتقلُّب الليل والنهار، فإذا استطاع الإنسان أن يستغل هذه السنن الثابتة فإنه يُمكَّن له في الأرض، وكأن هذه النِّعَم كلها سُخِّرت له.

هذا التمكين يجعل الإنسان يظن بعد فترة أنه لا يحتاج إلى إله، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾[الأعراف ١٠] فحينما يأتيه رزقه ويطمئن به وتطمئن معيشته ويشعر بالتمكين، في هذه اللحظات غالبًا يقول الإنسان المتكبر الجاحد أنه لا يحتاج إلى إله، وأنه استطاع أن يسيطر على الأرض ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾[يونس ٢٤]. وهكذا الملاحدة اليوم يظنون أنهم عند اكتشافهم الأسباب **التي وضعها الله –سبحانه وتعالى–**، والتي لم تأتِ عبثًا، فمن الذي ضبط هذا الكون؟

لذا عندما يقول أهل العلم أن من أدلة وجود الله، بل من أدلة علم الله وقدرته –سبحانه وتعالى–: ((المعيار والضبط الدقيق للكون))، يسمونه "Fine tuning" وهو كيف أن كل شيء في الكون مصنوع بدقة متناهية! دقة عظيمة! دقة مهما حاول الإنسان أن يكتشفها يبقى عاجزًا، فأرقام صغيرة جدًا جدًا لو تغيرت لفسد الكون. بل حتى إن بعض غير المؤمنين مثل "مارتن ريس" وأظنه لا أدريًّا، قد ألف كتابًا اسمه "فقط ستة أرقام" "Just six numbers"، يتكلم فيه عن الكون وكيف أن به أرقامًا لو تغير رقم منها بعد الفاصلة بستة أرقام لفسدت الدنيا، ويقول أن هذا الكون قائم على معايير دقيقة جدًا، ثم يسأل هذا الشخص العجيب في آخر كتابه "من الذي ضبط هذه المعايير؟"، ثم ظلَّ يبحث ولم يهتدِ إلى أنه الله –سبحانه وتعالى–! أمر عجيب فعلًا؛ أن يكتشفوا كلَّ هذه الأسباب التي مكنتهم في الأرض، –هم لم يفعلوا هذه الأسباب؛ فليسوا هم من ضبط الكون هم يكتشفون فقط– ثم بعد ذلك يقولون: نحن لا نحتاج إلى إله!

لذلك كان هذا التمكين في الأرض من أهم أسباب فتنة الناس عن الدين، فكلما زاد تمكين الإنسان في الأرض؛ ازداد الطواغيت الذين يجحدون نعم الله ولا يشكرونه. ولذلك تجد أن من المعاني والألفاظ المتكررة في سورة الأعراف الشكر، وقلنا أن أكثر كلمة تكررت في سورة الأعراف هي كلمة "الآيات"،

وجاء أيضًا في السورة التعامل الخاطئ مع الآيات [كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا]...[ظَلَمُوْا بِآيَاتِنِا]، أيضًا من المعاني التي تكررت في السورة (**قضية الشكر**)، حتى الشيطان سيخبر بذلك أنه سيبحث عن قضية الشكر، فهذا التمكين يجب أن يقابله شكر؛ لأنه نعمة من عند الله فيقابله شكر وليس جحودًا!؛ ثم يقول الجاحد أنا لا أحتاج إلى إله!

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾[الأعراف ١٠] الله –عز وجل– هو الذي قدَّر هذه الأرزاق، وهذه الأرزاق لم تأتِ عبثًا؛ فالله –عز وجل– خلق المعدة تحتاج إلى أنواع معينة من الطعام – من البروتينات والدهون والكربوهيدرات–، وهو –عز وجل– جعل هذه العناصر موجودة في الطبيعة، وإلا فمن الذي جعل هذه الأشياء متناسبة مع المعدة؟ وكان من الممكن أن يكون كل الطعام في الكون غير مناسب للمعدة ولا تستطيع هضمه وبالتالي لن يستفيد الإنسان منه! تخيل لو أن كل الأطعمة التي في الكون مكونة من الصخور والحديد أو أشياء لا يستطيع أن يطعمها الإنسان!! من الذي جعل هذه المعدة تستطيع أن تأكل الطعام؟ من الذي جعل الأرض الطينية السوداء تخرج منها كل هذه الألوان من الأطعمة؟! من الذي قدر هذه المعايش؟ من الذي قدَّر دورة المياه على سطح الأرض حتى لا ينفد وأن الإنسان يحتاج إلى الماء؟ من الذي قدر كل هذا؟ الله سبحانه وتعالى!

فالله هو الذي مكَّن لكم وجعل لكم فيها معايش، لكن للأسف كما ختمت هذه الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، فشُكر هذه النعم قليل لأن الإنسان مع طول النعمة وأيضًا مع طول فترة الاختبار بدون محاسبة ينسى! تخيل أن شخصًا دخل كلية، وقالوا له أن اختباره ليس بعد كل فصل دراسي ولا آخر كل سنة، ولكن سيكون بعد سنوات الدراسة كاملة، أي بعد أربع سنين، فهذا يسهل عليه عملية النسيان، طبعًا لو كان الأمر هكذا؛ لقضيت ثلاث سنين و ١١ شهرًا لهوًا، وفي الشهر الأخير تبحث عن الورق لتدرس! فطول فترة الامتحان بدون محاسبة تجد الإنسان ينسى؛ فكذلك الدنيا، الامتحان مؤجل، المحاسبة مؤجلة، لكن أنت الآن في فترة الامتحان، فمرور فترة طويلة بدون بلاء، بدون عقوبة، هذه الأشياء تجعل الإنسان ينسى ويصل إلى مرحلة من الاسترخاء والاستدراج –والعياذ بالله– فقال الله –سبحانه وتعالى– ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

بعد ذلك أخبرنا الله -سبحانه وتعالى- عن نعمة أخرى، نعمة أهم وأعلى؛ وهي نعمة الإيجاد أصلًا، فإذا كانت النعمة أن يأكل الإنسان ويطعَم في الدنيا، فمن الذي أوجده وأنعم عليه بهذا؟ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[الأعراف ١١] خلقكم الله -عز وجل- وأوجدكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ ونعمة التصوير جاءت بعد الخلق، و"ثم" تفيد في اللغة: "التراخي الرُّتبي" ومعناه أن ما يُذكر بعد "ثم" يكون أعلى مرتبة مما قبلها، ومن الممكن أن يكون أعلى في النعمة، أو أن يكون أعلى في الجحود مثل مقدمة سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام ١] فارق رهيب في الرتبة بين الخلق والإيجاد ثم المقابلة بكفران النعمة، كيف نزلوا وانحطُّوا إلى هذه المرتبة؟! فالتراخي الرتبي إما يكون للعلو أو إلى السفول حسب السياق.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[الأعراف ١١] فهناك مخلوقات كثيرة، لكن ليست كهيئة الإنسان الذي كرَّمه الله -عز وجل- وشرَّفه، فالله -عز وجل- لم يخلق الإنسان يزحف على بطنه، ولم يخلقه إذا أراد أن يطعم يضع فمه في الأرض، ولكن الله -عز وجل- كرم هذا الإنسان، وجعله منتصب القامة ثم جعله لا يسجد إلا له -سبحانه وتعالى-، كرَّم هذا الإنسان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ هذه الآية فيها إشكال طويل بين المفسرين، سأحاول أن أذكره بشكل مقتضب، لأن منكم من يحب أن يقرأ التفاسير وينهمك في التفاسير فليعلم أنه سيقابل بعض المشكلات. فهنا يوجد إشكال، فقالوا: كيف أن الله -عز وجل- يخاطب البشر ويقول: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فهل خَلَقَنا الله -عز وجل- أولًا ثم صوَّرنا ثم قال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؟ أم أن الله -عز وجل- قال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أولاً ثم بعد فترة من الزمن خلقنا وصورنا؟ ما هو ترتيب الأحداث؟ الله -عز وجل- خلق آدم ثم أمر الملائكة أن تسجد لآدم ثم بعد ذلك خلقنا وصورنا -سبحانه وتعالى-، فقالوا بأن ﴿ثُمَّ﴾ إن كانت تفيد العطف الزمني إذًا فيوجد إشكالية، وقلنا هنا أننا في التفسير نحاول أن نلتقط إشكالية ثم يختلفوا في الحل ويبدعوا - أي المفسرون- في إيجاد الحلول.

- فقال بعضهم: قول الله ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ هذا خطاب المقصود به آدم، ثم خوطب بالجمع تكريمًا له -ولا يقصد به بقية البشر- وأن بقية البشر يدخلون فيه تبعًا، إنما الخطاب بالأصالة لآدم

عليه السلام، فكأن معنى الآية: ولقد خلق الله عز وجل آدم ثم صوره ثم قال للملائكة اسجدوا له، فلماذا جاء الخطاب بالجمع؟ تكريمًا لآدم –عليه السلام–.

- وقال بعضهم: لا، المقصود هنا بالخلق أو التصوير هوإيجاد الذرية في صلب أبينا آدم، وأن الله –عز وجل– قدَّر بداية خلق كل إنسان، ووضع أصل هذه المادة في صلب أبينا آدم. فقال: ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ ، وهذا حدث مع بداية الخلق، ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ فهذا الترتيب الزمني متسق، وقالوا بأن الدليل على ذلك حديث: (أن الله –عز وجل– مسح على ظهر آدم فأخرج كل الذرّيّة من ظهر آدم)[1] فهذا دليل على أن أصل المادة موجود، وبعض الأبحاث في الإعجاز العلمي في قضية "الحمض النووي DNA" تثبت ذلك ويختارون هذا القول أن أصل الإنسان هي مادة "الحمض النووي" التي يتوارثها من لدن آدم –عليه السلام– هذا قول.
- وهناك قول آخر أن هذا ليس له علاقة بالترتيب الزمني وأن كلمة "ثم" تعني أن الله –عز وجل– خلقكم، فهذه نعمة، ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ هذه نعمة أعلى، ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هذه نعمة أعلى وأعلى، فالقضية ليست في الترتيب الزمني، **القضية إنما هي في ترتيب رتب النعم**، لأنه من الممكن أن يُخلق الإنسان ثم يصوّر ثم لا يكرَّم، فقالوا التكريم بإسجاد الملائكة لآدم هذه أعلى نعمة أخذها الإنسان.

حسنًا لو قلنا أن فعلًا هذه أعلى نعمة أخذها الإنسان، فالعلماء بحثوا عن السبب؛ ما هي النعمة الخاصة بأبينا آدم التي استوجبت إسجاد الملائكة له؟ أكرر: ما هي النعمة أو الفضيلة التي أعطاها الله –عز وجل– لآدم جعلت الملائكة يسجدون له؟

هناك من يقول العلم.

---

[1] [عن عمر بن الخطاب:] أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رضِي اللهُ عنه سُئِل عن هذه الآيةِ: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى} [الأعراف: ١٧٢] الآيةَ، قال عُمرُ بنُ الخطّابِ رضِي اللهُ عنه: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِل عنها فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (إنَّ اللهَ خلَق آدَمَ ثمَّ مسَح على ظَهرِهِ بيمينِه فاستخرَج منه ذُرِّيَّةً فقال: خلَقْتُ هؤلاءِ للجنَّةِ وبعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ يعمَلونَ ثمَّ مسَح ظَهرَه فاستخرَج منه ذُرِّيَّةً فقال خلَقْتُ هؤلاءِ للنّارِ وبعمَلِ أهلِ النّارِ يعمَلونَ) فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ ففيمَ العملُ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (إنَّ اللهَ إذا خلَق العبدَ للجنَّةِ استعمَله بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ حتّى يموتَ على عمَلٍ مِن أعمالِ أهلِ الجنَّةِ فيُدخِلُه به الجنَّةَ وإذا خلَق العبدَ للنّارِ استعمَله بعمَلِ أهلِ النّارِ حتّى يموتَ على عمَلٍ مِن أعمالِ أهلِ النّارِ فيُدخِلُه به النّارَ)
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦١٦٦ • أخرجه في صحيحه

وماذا أيضا قبل العلم؟ إنها نفخ الروح؛ لأنها من عند الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنه جاء في الآيات: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٢]، فقالوا: السجود هنا مترتب على نفخ الروح. في سورة البقرة ربنا -سبحانه وتعالى- ذكر قصة الإسجاد بعد قصة التعليم. وإن كان العلماء اختلفوا هل التعليم حدث أولًا ثم السجود، أم أن السجود حدث أولًا ثم التعليم؟ فيها خلاف بين أهل العلم في سورة البقرة. **الشاهد أن مجموع القولين نفخ الروح والعلم**.

- نفخ الروح: أي أنها روح من عند الله -عز وجل-، وأن آدم ليس مجرد طينًا، إنما فيه شيء، روح من الملك -سبحانه وتعالى-، وهذه الروح هي التي ترفع الإنسان. فإذا كانت هذه النعمة -نعمة نفخ الروح- هي أغلى نعمة عند الإنسان، كيف يُعرِض الإنسان عنها ويلتصق بالأرض؟! كيف يختار الدنيا ويترك الطاعة؟ كيف لا يختار ما جاء من عند الله -وهو الوحي- ويختار المناهج الأرضية ؟! هو يكفر بأعظم نعمة! فإذا اختار الإنسان الأرض ولصق إلى الأرض وأخلد إلى الأرض كما يأتي معنا في آخر سورة الأعراف ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾[الأعراف ١٧٥]... ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف ١٧٦]، فهو يكفر ويجحد بأعظم نعمة أعطاها الله -عز وجل- للإنسان؛ وهي نعمة نفخ الروح من عند الله -سبحانه وتعالى-.
- والنعمة الأخرى: هي نعمة العلم، فالذي لا يتعلم ولاسيما الوحي، فهو يجحد أعظم نعمة؛ نعمة أن الإنسان قابل للتعلم، وهذه نعمة وفضيلة أعطاها الله عز وجل للإنسان.

إذًا تحدثنا عن الإشكال الذي في "ثم" وتحدثنا كيف أن العلماء حاولوا إيجاد حل لهذه الإشكالية.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الأعراف ١١]، معذرة سنحاول أن نتكلم بسرعة، وتقابلنا إشكاليات ونحاول أن نذكر آراء المفسرين في حلها.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أين الإشكال الذي هنا في هذه الآية؟ أين الإشكال في قول الله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ثم يقول: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾؟ واو الجماعة هذه على من تعود؟ على الملائكة، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ أي أنه إذا حذفنا واو الجماعة -هذا الضمير- وأحببنا أن نضع الاسم الظاهر، سنقول: فسجد الملائكة. ربنا يقول ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ كيف نحل هذا الإشكال؟

[٢] ذكرت هذه الآية في [الحجر ٢٩] و[ص ٧٢].

هناك من يقول أن إبليس ليس ملكًا أصلًا.

حسنًا وإذا كان إبليس ليس ملكًا أصلًا، فكيف جاء بعد الاستثناء؟ أليس من المفترض أن ما بعد الاستثناء من جنس ما قبل الاستثناء؟ مثلًا عندما أقول: أكلت الخروف إلا ذراعه، المفترض أن هذا الذراع من جنس الخروف، أو مثلًا: ضربت الطلاب إلا طالبًا، هذا من جنس ذاك، صحيح؟ هذا اسمه استثناء، فإذا قلنا: إن إبليس ليس من الملائكة، فكيف جاء إبليس بعد الاستثناء؟ إذًا فهذه إشكالية، تعالوا لنرى كيف حلّها العلماء.

- القول الأول: بعض العلماء قال -ولا أريدك أن تستغرب- أن إبليس من الملائكة، فلا تنصدم عندما تقرأ هذا في بعض التفاسير.

وهنا يقابلنا إشكالية أن بعض الناس عندما تقابله أقوال كهذه يفزع وكأنه مثلًا كان يطوف حول مكان خاطئ، وكأن أصلًا من الدين هُدم، و الموضوع بسيط وعادي. ما الذي أضرك الآن عندما علمت أن بعض العلماء قالوا أن إبليس كان من الملائكة ثم فسق عن أمر ربه فطرده الله -جل وعلا-؟ ما المشكلة؟ ما الذي يمكن أن يسبب أزمة نفسية في أمر كهذا؟ فأحيانًا بعض الناس عندما يسمع بعض الأقوال يُصدم.

أنا أريد أن أقول لك أن الصدمة الكبرى أن بعض الناس نسبوا هذا القول لجمهور المفسرين، وهذا اختيار كثير من أئمة التفسير كالإمام الطبري وأظن ابن عطية وغيرهم من المفسرين. وإن كان في ظني أن ليس هذا هو الراجح -والله أعلى وأعلم- لأن هناك أدلة أخرى أقوى.

حسنًا، من قالوا أن إبليس من الملائكة لابد وأن يحلوا إشكالية، ومن قالوا أن إبليس ليس من الملائكة لابد أن يحلوا إشكالية الاستثناء.إذًا كل فريق هنا سيختار قول لا بد أن يكون مطّردًا مع نفسه، فمن سيختار أن إبليس من الملائكة لا بد وستقابله آية مُشْكَلة صريحة في القرآن فما هي؟ إنها آية الكهف، وهذه هي أصرح آية في القرآن بأن إبليس من الجن ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[الكهف ٥٠]. هذه الزيادة غير موجودة إلا في آية الكهف -﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾- فتؤكد أن الكينونة من الجن. فالفريق الذين قالوا أنه من الملائكة قالوا: الذي جعلنا نقول أنه من الملائكة أن الأمر صدر للملائكة. وبهذا، فإن المفسرين كانوا بين خيارين: إما أن يؤولوا صدور الأمر للملائكة، أي أن إبليس لم يكن معهم لكن تلقى الأمر فقط، أو يؤولوا كلمة ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

*فمن قال: إن إبليس كان من الملائكة، قال: الجن –في آية الكهف– معناها: كل مستتر عن العين، فكل مستتر عن العين يسمى جن، وليس المقصود به الجن الذين هم الشياطين، والدليل: قول ربنا –سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾[الصافات ١٥٨]. فكثير من السلف قالوا الجن هنا الملائكة؛ لأن قريشًا كانت تقول أن الملائكة بنات الله –تعالى الله عما يقولون–

*إذًا كيف ردوا على حديث صحيح مسلم :(أن الله خلق الملائكة من نور وخلق الشياطين أو الجن من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم)[٣] –أي من الطين–؟

– قالوا أن هذا فرع من الملائكة؛ هو الجن، أي أن هذا فصيل من الملائكة وهي الجن، وكان عندها قضية الاختيار مثل إبليس.

– بعضهم قال لا، إنه كان من الملائكة فعلًا لكنه لما عصى الله –عز وجل– طرده ويفعل الله –عز وجل– ما يشاء.

- القول الثاني: أن إبليس ليس من الملائكة ولكن رفعه الله –عز وجل– معهم لعبادته، وأن إبليس مخلوق من نار كما هو في صحيح مسلم: (خلق من مارج من نار)[٤] وقال الله –عز وجل–: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف ٥٠]، وأن إبليس له حرية الاختيار في القرار، وليس كالملائكة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾[التحريم ٦]، بل إبليس كآدم أعطاه الله –عز وجل– الأمانة، وأحد معاني الأمانة القدرة على الاختيار بين الخير والشر ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس ٨–١٠]... أي أن الإنسان ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان ٣]. هذا الاختيار وهذه الأمانة التي كانت للبشر، أيضًا كانت عند إبليس، ولكن إبليس اختار المعصية –والعياذ بالله– فمُسخ وطُبع على قلبه كما سنتكلم عن كلمة ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[الأعراف ١٣] وكلام العلماء عنها، وما حدث لإبليس حينما قال له الله ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

[٣] [عن عائشة أم المؤمنين:] خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ، و خلق الجانَّ من مارِجٍ من نارٍ، و خلق آدمَ مِما وُصِفَ لكمْ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٣٢٣٨ • صحيح • أخرجه مسلم (٢٩٩٦)
[٤] سبق تخريجه

فمن قال إن إبليس من الجن –وهو اختيار الإمام ابن كثير وكثير من أئمة السنة المتأخرين، وهذا الذي أراه وهذا أوفق والله أعلى وأعلم–، قالوا "إلا" إذًا ما معناها؟ الذين سيقولون بأن إبليس من الجن سيقابلهم إشكاليتان.

– الإشكالية الأولى: كيف صدر الأمر له؟

– الإشكالية الثانية: كيف جاء في الاستثناء؟

الإشكالية الأولى: قالوا حلها أنه كان متعبدًا ورفعه الله –عز وجل– مع الملائكة فصدر له الأمر مع الملائكة. ولكن لماذا لم يقل ربنا: "قلنا للملائكة ولإبليس اسجدوا"؟ قالوا: هذا يسمى في اللغة: التغليب، وهو أنه حين يكون هناك رجال ونساء مثلًا، وأنت تمرُّ عليهم فتقول السلام عليكم، وغير ضروري أن تقول: السلام عليكم وعليكن، بل من باب التغليب، تُغلِّب الذكور. فهنا من باب التغليب –وغالبًا تغلِّب الأفضل أو المذكر على حسب قواعد معينة في اللغة–، غُلِّب الملائكة لأنهم أفضل من إبليس، وهكذا أجابوا على الإشكال الأول ﴿قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾[الأعراف ١١].

حسنًا، **والإشكالية الثانية والتي هي الاستثناء**: يوجد قاعدة في اللغة –وهذا شيء معروف في اللغة– تقول: إذا كان ما بعد الاستثناء ليس من جنس ما قبل الاستثناء، أي إذا كان ما بعد إلا ليس من جنس ما قبل إلا، تأتي بمعنى [لكن] ويسمى "استثناء منقطع". وإذا كان ما بعد إلا من جنس ما قبل إلا؛ يسمى "استثناء متصل". عندما أقول: أكلت الفاكهة إلا العصير. معنى كلامي: أكلت كل شيء لكن العصير لم أستطع أن أكمله، أي أن العصير ليس من جنس الفاكهة. وله أمثلة كثيرة في اللغة، أنه إذا كان ما بعد إلا ليس من جنس ما قبل إلا يأتي بمعنى لكن.

إذًا سيصبح معنى آية ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فسجد الملائكة ولكن إبليس لم يسجد، وليس معناها أن إبليس من الملائكة، إذًا قالوا هذا استثناء منقطع.

وهذا سيقابلك عندما تقرأ في التفاسير، يقول لك هذا الاستثناء استثناء منقطع. فالاستثناء المنقطع بمعنى لكن. لو ما بعد إلا ليس من جنس ما قبل إلا، ليس منه ولا من تفاصيله ولا من شجرته ولا من فروعه، يكون هذا استثناءً منقطعًا. لذلك يقول لك مَثَل مشهور وهو فج –مثل فج يُضرب أحيانا في كتب اللغة كي يوضح به المعنى– يقول: جاء الطلاب إلا حمارًا، فهو يريد أن يقول أن الحمار ليس من

الطلاب، ليس من جنسهم. فيصبح هنا المعنى: ولكن لم يأتي ولا حمار، جاء كل الطلاب ولم يأتي أي حيوان. هذا الغرض منه –وهو ليس جملة واقعية– أن يوضح لك كيف يأتي ما بعد إلا من غير جنس ما قبل إلا. وهذا قول مقبول في لغة العرب، ويسمونه استثناءً منقطعًا.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بعض العلماء قال لَمَ لم يقل: "لم يسجد" وقال: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؟

فهُنا نفي الكَوْن "كان" هذا فعل منفي، نفي الكَوْن، كأن هذا في طبيعته؛ كأنه قرَّر من أول لحظة –من لحظة خلق آدم– أنّ أيّ أمر سيكون فيه تفضيل لهذا المخلوق عليه فلن ينفذه. من أول لحظة وإبليس قرر حسد هذا المخلوق، كما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم-: (أن أول ما صور الله –عز وجل- آدم وقبل أن ينفخ فيه الروح، جعل إبليس يطيف به)[٥] وهو لم يزل عبارة عن تمثال طين في الجنة لم ينفخ فيه الروح بعد (جعل إبليس يطيف به) أي ظل يدرسه، وفي رواية خارج الصحيح في الآثار وبعضها في الإسرائيليات قال: "لشيء ما خُلِقْت ولئن سُلطت عليك لأُهلكنّك". هو من البداية قد قرر: أنه عدوه، ، وأي شيء فيه تفضيل لهذا المخلوق عليّ لن أنفذه.

﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وقيل ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: جمع "الساجدين" تفيد أنه لم يكن له عذر، فالطلب لم يكن له وحده، أي لم يكن شيئًا ثقيلًا على نفسه، لِمَ لم يكن إذًا مع باقي الملائكة؟ أتكون معهم حينما تُرفع ولا تكون معهم حينما يسجدون!

من رحمة الملك –سبحانه وتعالى– هنا أنه لم يؤاخذه ويعاجله بالعقوبة، بل سأله ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾[الأعراف ١٢]. هنا توجد إشارة و دلالة أن الله –عز وجل– لا يُهلك قومًا إلا بعد أن يُنذرهم ويسألهم ويعاتبهم ويرسل إليهم رسولًا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولا﴾[الإسراء ١٥]، إذًا سأله الله –عز وجل-: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾[الأعراف ١٢].

هنا يوجد نقطة في سورة الأعراف، سنجد أن كل سورة تقص علينا قصة آدم وخلق آدم، تلتقط لقطات مختلفة، وهذا في قصص القرآن عامة؛ تجد قصة سيدنا موسى تأتي بمشاهد مختلفة في سور متنوعة، فمثلًا

[٥] [عن أنس بن مالك:] لمّا خلَقَ اللهُ آدَمَ جعَل إبليسُ يطيفُ به فلمّا رآه أجوفَ قال: ظفِرْتُ به خَلْقٌ لا يتمالَكُ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦١٦٣ • أخرجه في صحيحه

قصة موسى والخضر لم تأتِ إلا في الكهف، قصة السامري لم تأتِ إلا في طه، قصة موسى مع فرعون جاءت متفرقة في سور كثيرة، كل سورة كانت تذكر لنا مشهدًا معينًا. فلم كل هذا الاختلاف؟

((لأن كل مشهد من قصص القرآن مناسب لموضوع السورة))

مرة أخرى وهذه القاعدة مهمة جدًا، كل مشهد من قصص القرآن مناسب لموضوع السورة، وتكلّمنا عن هذا في سورة الأنعام، عندما قلنا أنَّ قصة سيدنا إبراهيم جاءت في القرآن في أكثر من موطن، ولكن قصة رؤية النجوم والكواكب -سواء كان ناظرًا أو مناظرًا- لم تأت إلا في الأنعام وقد وضّحنا لماذا.

إذًا انتقاء بعض المواطن من قصة واختصاص سورة معينة بها يكون مناسبًا لموضوع السورة. نلاحظ هنا أنه لا يوجد تفصيل لقضية الخلق وتعليم آدم، مثلما يوجد في سورة البقرة؛ لأن الغرض من قصة البقرة: فضل أبينا آدم لاستخلافه، هناك -في سورة البقرة- بداية الاستخلاف، لأن الغرض من سورة البقرة بيان كيف تعامَل بنو إسرائيل مع استخلافه، فربنا ذكر في سورة البقرة القصة من البداية. لكن الغرض في سورة الأعراف ليس كذلك، الغرض الأساسي في السورة: هو التعامل الخاطئ مع أوامر الله، والتحذير من الشيطان الذي يدفعُنا لعدم تنفيذ أمر الله، هذا من الأغراض الأساسية مثلما تحدثنا "كيف تعامل الأقوام مع الرُسُل".

وفي الأنعام: كيف تعاملوا مع الرب.

في الأعراف: كيف تعاملوا مع الرسالة -مع الأوامر- هل اتضح الفرق؟

ففي الأعراف: ذكر الخلق والأمر بالسجود مباشرة في آية أو آيتين، وذكر موطن الشاهد مباشرةً. سنجد أن إغواء الشيطان لأبينا آدم في سورة البقرة مقتضب ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[البقرة ٣٦] فقط، هذا في سورة البقرة، ولكن في سورة الأعراف ذكر كيف حدث هذا، وماذا قال لهم الشيطان، وماذا كان المدخل؛ يوجد تفاصيل للسقوط وللتوبة أكثر من تفاصيل سورة البقرة؛ لأن هذا مقصد أساسي من مقاصد سورة الأعراف.

توزيع القصص القرآني على كل سور القرآن أمر مبهر! لذلك لكي تدرس قصة من قصص القرآن، يحتاج منك ذلك أن تجمع القصة من سور القرآن.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[الأعراف ١٢]، هنا يوجد إشكال لغوي لكن سأتجاوزه؛ لأنه مبحث لغوي طويل، وهو "زيادة حرف لا" ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، لأن في سور أخرى كسورة الحجر وسورة ص جاءت الآية: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾[ص ٧٥] وأصل الكلام فعلاً "ما منعك أن تسجد"، فكيف جاءت ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[الأعراف ١٢]؟؟

- بعضهم قال: ال "لا" هذه زائدة للتأكيد، وأحياناً يسمونها صلة غير موصولة، غير موصولة؛ أي ليست اسم موصول، وصلة أي زائدة تفيد التأكيد، وهذا مبحث طويل جدًا، هل يوجد شيء اسمه حرف زائد في القرآن؟
  - بعضهم قال: لا.
  - وبعضهم قال: زائد نحوًا لكن ليس بلاغةً، أي ليس له إعراب لكن له دلالة لغوية بلاغية معينة، وهذه قصة طويلة.

الشاهد أن بعضهم حتى يخرج من الإشكال هنا قال: أن "لا" زائدة.

- وبعضهم قال: "منعك" هنا يتضمّن فعل خفي في داخله، فيكون المعنى: ((ما الذي حملك واضطرك لئلا تسجد؟)) ما الدافع الذي بداخلك الذي جعلك تمتنع عن السجود؟ بالتأكيد هناك دافع جعلك ترفض، كل الملائكة سجدت ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٦] وجاء التأكيد مرتين في هذه الآية: "كلهم" و"أجمعون".

بعضهم قال: "كلهم" حتى لا يستثني ملكاً، "أجمعون" في نفس الوقت، لم يتأخر أحد في هذا المشهد المهيب، في هذا التكريم العظيم، لماذا ترفض؟ لماذا تختار أن تقف لوحدك؟ بالتأكيد هناك دافع. ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[الأعراف ١٢]؟

قبل أن نقرأ إجابة إبليس –عليه لعنة الله– ننظر لهذا التكريم، لا ننسى أبدًا هذا التكريم، لأنه في كل مرة يبتعد الإنسان عن شرع الله –عز وجل– هو يجحد هذا التكريم، في كل مرة يلتصق الإنسان بالأرض، ويبتعد عن الوحي، هو ينسى هذه اللحظة المهيبة!

[٦] ذكرت هذه الآية في [ص ٧٣] و[الحجر ٣٠].

حين تنظر إلى المناهج الغربية التي لا تعترف بالوحي؛ نرى كيف تتعامل مع الإنسان، حين يأتوا يحللونه من ناحية علم النفس، أو من الناحية البيولوجية، حتى من ناحية الخَلق –وهم بالطبع كلهم أو جلهم لا يعترفون أن هناك خلق أصلًا– نجد أن الإنسان في نظرهم مجرد حيوان متطور، مجرد غرائز تتحرك، مثلما يقول بعض علماء النفس في الغرب؛ هو مجرد ذرّة تافهة، غبار كوني! نحن –كما يزعمون– مجرد غبار كوني تائه يوشك أن ينقرض! انظر كيف يتعاملون بعبثية في الحياة! لكن **المؤمن يشعر بهذا التكريم،** يستحضر حينما يقرأ القرآن، يستحضر أنه موجود في هذه الأرض لغاية عظمى. الغرب يقولون كيف هذا؟ فالأرض ليست هي مركز الكون، عندما اكتشف "كوبر نيكوس" أن الأرض ليست هي مركز الكون مثلما كانوا يعتقدون، قالوا في ذاك الوقت: تبيَّن أن الأرض ذرة تائهة في الكون، وكذلك الإنسان ليس له قيمة، وليس له مركز، هم نظروا إلى الأحجام، لم ينظروا إلى **قيمة الوحي**!

كما فعل إبليس، نظر إلى قوة النار، نظر إلى من سينتصر عندما يحدث صراع بين النار والطين، هو يقيّم بمعايير مختلفة! ذكرنا أنه جاء الميزان؛ ليرجعنا إلى موازين الشرع لتقييم الشيء، الإنسان نعم ضعيف ، الإنسان نعم بمنظور الأحجام أشبه بذرة تائهة على ذرة تائهة –وجه الأرض– موجودة وسط مليارات المجرات! **لكن اصطفاه الله!** أنزل الله إليه الوحي، أسجد اللهُ لأبيه آدم الملائكة، كلّم الله –عز وجل– فردًا منه؛ موسى بل ومحمد –صلى الله عليه وسلم–، أي تكريم! فلحظات نزول الوحي لحظات تكريم، تجعل الإنسان يعيد النظر إلى نفسه، وإلى وظيفته على الأرض.

فهنا إبليس يتحرك بنفس المنطلق ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ "لِمَ أسجد؟!، ما قيمته؟" انظر عندما تختل الموازين بعيدًا عن الشرع، قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ هذه الإجابة الإبليسية اللعينة –عليه لعنة الله–.

هنا ربنا –سبحانه وتعالى– يأمره أن يسجد، ثم هو يحلل الأمر ويقول: "أنا لا أرى أن لهذا الأمر حكمة!". ربنا يقول له: "افعل"، ﴿ٱسْجُدُواْ﴾[الأعراف ١١]، فسجد الملائكة، بينما هو يقول: "أنا لست مقتنعًا"، "أنا أرى أن هذا الأمر به مشكلة –ليس صوابًا– كيف يسجد النار للطين؟!" ويتناقشون، ويعقدون جلسات، وهل فعلًا النار أعظم من الطين؟ نعم، فعلًا؟! نعم، إذًا نحن نحتاج أن نرد هذا الحكم؛ لأننا اكتشفنا أن النار أفضل من الطين!

يا من فقدتم عقولكم ماذا تفعلون؟! أمر الملك –سبحانه وتعالى– بهذا، هذا شرع من ربنا –سبحانه وتعالى– وتقول أنت: دعنا نقيّم هذا الحكم أيصلح أم لا؟

((الملكُ يأمر سبحانه وتعالى!))

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[الأعراف ١٢]! إجابة مستفزة جدًا، يا لحلم الملك –سبحانه وتعالى– وهو يسأله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾؟ قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾! وهذا اللعين يعترف فيقول: ﴿خَلَقۡتَنِي﴾، ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هذا يعني أنك لم تفعل شيئًا! أنت مخلوق! ولا ترضى أن تستسلم للأمر!!

لقد ذكرنا أكثر من مرة أن الأعراف توضح أن هناك إشكالية عند الناس بين الخلق والأمر ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾[الملك ١٤]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾[الأعراف ٥٤] جاءت في الأعراف، أن الذي خلق هو الذي يأمر، أما قضية الخلق جاءت في الأنعام، هنا إبليس اعترف بالخلق، فليعترف بالأمر! هنا توجد إشكالية؛ بأن هناك أناس من الممكن أن تعترف بالخلق، مثل مشركي مكة، لكن لا تعترف بالأمر؛ يقول: "لا توجد رسالة"! لا يريد أن يأتمر.﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[الأعراف ١٢]

فتجد آثار كثيرة عن بعض السلف تقول: "أول من قاس برأيه إبليس–عليه لعنة الله–". هنا القضية ليس أن يكون كل القياس الفقهي خطأ، ولكن القاعدة تقول: لا قياس مع ماذا؟...مع نص؟ **لا قياس مع النص**، طالما هناك أمر من أوامر الله، لا نعترض ونتكلم فيه ونقول: "نحن سننظر، وننظر إلى المآلات، لا أدري، ..."، طالما أنه أمر من ربنا لا نعترض. من الممكن أن نقول لسنا قادرين، لا توجد استطاعة، نحن مستضعفون، لكن لا نرد الأمر!

هذا اللعين رد أمر الله –سبحانه وتعالى–: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، لم يرد الأمر فقط! لا، لكنه ردّه وأظهر نوعًا من الحكمة، وهذه إشكالية! لم يقل: "لن أفعل، لن أسجد، أنا متكبر" لا، لكنه يغطيها بنوع من الأدلة، يشرعنها –يعطيها الشرعية– بحيث أنه لم يرد الأمر فقط، وسنرى أنه استخدم نفس الطريقة مع سيدنا آدم؛ لم يقل له: رد الأمر فقط، لم يقل له: اذهب وكل من الشجرة فقط! لا، بل جعله يردّ الأمر بطريقة معينة، لأن هذا مفاد إبليس أصلًا؛ أن ترد أمر الله –سبحانه وتعالى–، أن تعترض على أمره الشرعي والقدري. لذلك "لو" تفتح عمل الشيطان، لماذا؟ لأنها

اعتراض على القدر، فالشيطان يريدك أن تقف هذا الموقف "الاعتراض"، ليس العصيان فقط، بل يريدك أن تعترض على أمره –سبحانه وتعالى– الشرعي والقدري.

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾،

- وهنا عندما تحدث بعض أو أغلب العلماء بداية من الطبري وكثير من المفسرين قال: "في الواقع إن هذا الكلام خاطئ"، فالطين أفضل من النار، وأقاموا مقارنات طويلة أن الطين هو مكان الإنبات، والطين مكان التواضع، والطين مكان الرزانة، والطين مكان البناء. أما النار هي مكان السرعة، والطيش، والإحراق، والهدم. وأن من يريد أن يبني يستعمل الطين، من يريد أن يزرع يستعمل الطين، عندما يُوضع الطين يتكون هكذا وينخفض في نوع من التواضع، فكثير من العلماء قال: "في الواقع الكلام الذي قاله إبليس خطأ" فهو قال معلومة خاطئة وتكلم بها على أنها مسلَّمة، وهذا نوع من الجهل المركب.
- وبعض العلماء، فريق من العلماء مثل ابن عاشور مثلًا –وهذه كانت جرأة منه قليلًا– قال: "النار هي أفضل في الواقع"، وأخذ يتحدث عن سبب أفضلية النار وأصَّل أن النار أفضل، لكن أفضلية النار لا تقف أمام أمر الله! لماذا؟

– **أولًا**؛ لأنه أمر الله.

– **ثانيًا**؛ لأن هذا الطين فيه نفخة من روحه سبحانه.

فهو اجتزأ الطين فقط، فإبليس اجتزأ الطين، لم يقل خلقته من طين ونفخت فيه من روحك.

- بعض العلماء قال: "لا، نحن لا ندري أيهما أنفع النار أم الطين"؟ وهذا من المتأخرين.
- وبعضهم قال: "لا، –في الواقع– النار والطين يحتاجان لبعضهما"، والقضية ليست تنافس، بل تكامل، وأن استواء الطين يحتاج إلى النار، ولماذا نجعل الموضوع تنازع؟، فعندما قال ربُنا للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ﴾[الأعراف ١١]هل هذا يعني أن الملائكة ليس لها أيُّ دورٍ؟! لا كلٌ له دور.. ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات ١٦٤].

لكن ما أميل إليه أن أفضلية الطين جاءت من هذه النفخة؛ لذلك الذي يهتم بطينته فقط ولا يغذّي هذه النفخة هو يخلد إلى الأرض، كما فعل عالم بني إسرائيل الذي في نهاية سورة الأعراف، فالشاهد:

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف ١٢]، فَرَدَّ أمر الله –عزّ وجلّ– بقياس فاسد وأصَّل لهذا القياس الفاسد حتى يرفض هذا السجود.

إذًا **كلمة "أنا خير منه" مِفتاح كل شَر** –والعياذ بالله–، هذه الكلمة عندما تسيطر على إنسان تجعله يرفض أشياء كثيرة جدًا، في حين أنه لا بدّ أن يظل هناك قائد، لا بدّ أن يظل هناك إمام، فلو أنّ كل شخص رفض وقال ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، سيفسد الصفّ تمامًا، فالمسألة ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[النجم ٣٢]. ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف ١٢] هذه ما سلطت على عمل إلا وأفسدته، أيُّ عمل دعوي، حركي أيُّ مجموعة ما سُلِّطت هذه الكلمة على قلوبهم وعقولهم إلا وأفسدتهم، ما انتشرت بينهم على ألسنتهم، "أنا عملت"، "لا أنا من فعله"!! إلا كانت إيذانًا ببداية الخراب –نعوذ بالله من ذلك–؛ لذلك فور سماعنا لها تنتشر؛ لا بد من قَصمِها مباشرة لا بدّ أن نرفضه، إذًا هذه الكلمة ننساها.

لو ذكرنا قصص الأعمال التي خربت بسبب هذه الكلمة، سنوقف التصوير ونجلس لنتكلم عنها! **هذه الكلمة ما دبّت في مكان إلا وحوّلته من جنة إلى الخروج من هذه الجنة**، كما حدث مع إبليس، لما تكلم بهذه الكلمة أمر بالخروج منها، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾[الأعراف ١٣] وهذه الهاء في "منها" يحتمل أن تعود على المنزلة؛ كما قال ابن كثير وليست فقط الجنة. الله تعالى يرفع الناس ويضعهم في منزلة، حينما يتكلمون بهذا الكلام يخفضهم –والعياذ بالله– يأتيهم أمر **اهبطوا** لستم أهلًا للرفعة، أنا رفعتكم فلا تنسبوا ذلك إلى أنفسكم، لا تقل: أنا!، أنا من عمل، أنا من نار، كيف ذلك!

الله عز وجل يحب –والإنسان للأسف يخاف وهو يقول هذا الكلام؛ لأن لديه قصور شديد في هذه القضية– الله يحب الهيِّن، اللّين، السَّهل، القريب الّذي يكون مفاتيحًا للخير، ولا يكون مفاتيحًا للشر. فهذه الكلمة ما دخلت في مكان إلا وأخرجت قائلها من الجنة الّتي كان فيها، وما ابتلي قوم بهذه الكلمة إلا وأفسدت عليهم أعمالهم.

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف ١٢] –مباشرة بعدها– ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾[الأعراف ١٣]، هذا مرض عَصِيٌّ، تَمكُّنِ الكبر لا يصلح معه نقاش! هذا المرض حينما يتمكّن، القضية ليست قضية إقناع؛ هذا الكبر مسيطر على القلوب تمامًا! هذا المرض حينما يتمكّن من الإنسان والعياذ بالله يمنعه من الخير ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، قال البعض أن الفاء هذه "فاء سببية". أي بسبب أنك

تكبرت وطبعًا (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[٧]؛ حتى لا يتشبه بإبليس، وتطبيقًا لموعود الله.

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لا يصحّ! وأيضًا قيل أن معنى ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، أي في هذه المنزلة، في هذه المنزلة الّتي رفعتك إليها لا يصلح معها تكبُّر. كم من إنسان سقط من منزلة رفعه الله –عزّ وجلّ– فيها بسبب هذه الكلمة؟، كم من إنسان رفعه الله –عزّ وجلّ– واستعمله في الطاعة، ثم بكبره سقط منها؟ رفعه الله –عزّ وجلّ– كان لا شيء، ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[الإنسان ١] أتى الله –عزّ وجلّ– به ورفعه ثم هو يقول: أنا فعلت، وأنا فعلت، مباشرة فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها. إذًا فليكثر الإنسان من قول "فعل الله، وأعطى الله، وأنعم الله". ولا يكثر من قول: "لقد فعلت ولقد أعطيت ولقد عملت"، يكثر من ذكر نعم الله عليه، ولا يكثر من ذكر أفعاله، ومن مدح أفعاله.

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[الأعراف ١٣]. العلماء تحدثوا عن كيف أنه عندما أُمر إبليس بالخروج من الجنة عاد مرة أخرى للوسوسة لآدم؟! **وهذا حقيقة هو أمر غيبِيّ نكتفي فيه بالتسليم**. حتى لا نخوض في قضايا، وسأذكر لكم سريعًا بعض ما قاله أهل العلم.

- بعض المفسرين حاول أن يخرج من هذه الأزمة وقال إن هذه الجنة في الحقيقة كانت على الأرض، ليست جنة في السماء، ليست جنة الخلد.
- لكن حقيقة، قول جماهير أهل السنة أن هذه الجنة هي جنة الخلد، هي جنة نعيم، ونقاشٌ طويل لماذا ليست جنة النعيم وكيف يكون فيها اختبار وأن الجنة ليس فيها اختبار..

الشاهد: نحن نتعامل مع ما أتانا من آيات الله –سبحانه وتعالى– دعونا نتعامل مع القرآن أنه كتاب هدى، قضية **أن القرآن كتاب هدى** قضية مُرجّحة لكثير من الخلافات، وقضية تبعدُك عن كثير من النقاشات. نحن نستفيد أن ربنا –سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق آدم في الجنة، نشهد أنّ ربنا خلق آدم في الجنة، نبحث ونتدبر فيما أخبرنا الله به.

---

[٧] [عن عبدالله بن مسعود:] لا يدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قلبِه مِثقالُ حبَّةٍ مِن خَرْدلٍ مِن كِبْرٍ، ولا يدخُلُ النّارَ مَن كان في قلبِه مِثقالُ حبَّةٍ مِن خَرْدلٍ مِن إيمانٍ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه • ٣٣٨٢ • صحيح

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ العلماء عندما تحدثوا على مسألة ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فجملة ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ هل إبليس عليه لعنة الله كُتب عليه وطُبع على الشر من أول ما خُلق، أم أنه مثل الإنسان اختار؟ هل كان لديه القدرة على أن يختار؟ هذا كلام ابن عاشور وأكثر المفسرين أنه كانت له قدرة، أعطاه الله –عز وجل– الاختيار بأنهُ يطيع أو يعصي، فلما عصى، في هذه اللحظة كُتب عليه الشقاء الأبدي، فقالوا هُنا ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، –بتعبير ابن عاشور– المسخ النفساني– مسخت نفسه في هذه اللحظة، فلا عودة!

بعض الناس يثيرون الشبهات فيقولون: إن الله منذ البداية جعل إبليس يعصيه، نعم هذه مسألة في القدر، نعم الله –عزّ وجلّ– هو الّذي يضل الإنسان، لكنّه يضلّه بحكمته –سبحانه وتعالى– بعلمه أنه يستحقّ ذلك ويستحقّ الإضلال، لن نقول مثل المعتزلة أن ربنا لا يضلّ، والإنسان من يختار الضلال بنفسه، هو من يخلق الضرر!! لا، الله –عزّ وجلّ– هو الذي جعل الظلمات والنور –سبحانه وتعالى، فهُنا إبليس في هذهِ اللحظة لما أبَىٰ السجود، صدر الأمر من الملك –سبحانه وتعالى– قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ستظل ذليلًا أبد الدهر انتهى!! لقد أغلق دونه باب العودة، وهنا قالوا سمي "إبليس" من الإبلاس أي اليأس، ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾[الروم ٤٩] أي يائسين مُحبَطين –كما في سورة الروم كذلك– ،فهنا الإبلاس من اليأس.

قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ قالوا: في هذه اللحظة كما أن الله –عزّ وجلّ– إذا مسخ قومًا في أبدانهم لن يعودوا، فكذلك هذا مُسخ في نفسه والعياذ بالله، هذا من العقوبات الأبدية، نسأل الله السلامة. كما أخبر ربنا: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾[التوبة ٧٧] توجد عقوبات هكذا والعياذ بالله، ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾.

فهُنا قال ربنا لإبليس: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[الأعراف ١٣]، الصاغرين عكس ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[الأعراف ١٢] متكبر! فعوقب بنقيض قصده، لم يرغب بأن يسجد؛ حتى لا يكون هذا عمل فيه إهانة له كما يظن، كما يدّعي فعوقب بنقيض قصده، أراد أن يرتفع فكانت عقوبته والعياذ بالله أنه من الصاغرين.

﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤]، لم يقل ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف ٢٣] كما قال آدم، طلب طلبًا، قال في آية ﴿رَبِّ﴾[الحجر ٣٦] –سورة الحجر– هنا قال ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ

﴿يُبۡعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤] طلب الإنظار، أن يُنظَر إلى يوم البعث، لماذا إبليس طلب أن يُنظر إلى يوم البعث؟، لماذا قال ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾؟ هل لكي لا تفوته متعة في الدنيا إلا ويتمتع بها؟!!

-بل لكي لا يفلت منه أحد من البشر، انظروا عُلو الهمة، نريد تعلم عُلو الهمة من إبليس، يريد أن لا يفوته أحد من أولاد آدم؛ لذلك جاء الخطاب في الأعراف أربع مرات -السورة الوحيدة- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ احذروا، احذروا، تذكروا دائمًا هذه المعركة، فهنا قال ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤]. هو يركز على بني آدم، يوم يبعثوا، أريد أن أظل معهم، لا أتركهم لحظة إلى أن أطمئن أن البعث جاء فعلًا، يدخلوا النار معي، هكذا اطمأننت!، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾[إبراهيم ٢٢]، كي أخطب فيهم خطبتي أريد أعدادًا، الشيطان لا يحب أن يخطب في مسجد صغير، يريد أعدادًا كبيرة، عندما......﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ من أجل أن يخطب فيهم كلهم في النار. فهو يريد ماذا؟ يريد جميع الناس أن يكونوا معه، ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤].

فأجابه الله لما سأل ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾[الأعراف ١٥]،

– كثير من العلماء يقولون: إن إبليس عندما طلب أعطاه الله سؤله.

– لكن المتقدمين، الإمام الطبري وقبله، الإمام السُّدي وبعض السلف، قال: "لا"، لم يعطه الله سؤله، إذًا ماذا حدث؟ هو طلب أن يُنظَر إلى يوم البعث، يوم البعث أي أن الناس كلها تموت في النفخة الأولى، ثم يظلون فترة، ثم النفخة الثانية يوم البعث، وبعد ذلك لا يوجد موت، يُدحَر الموت ويُنحر الموت بعدها. إبليس يريد أن يبقى، لا يذوق الموت، فقالوا: إبليس عندما طلب ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤] كان يريد شيئين:

١– لا يريد أن يذوق الموت، يريد الخلود.

٢– ولا يريد أن يفلت منه أحد من بني آدم.

فأخذ الثانية أن يظل مع الناس إلى النفخ، لكن ستموت معهم، ستذوق الموت؛ لذلك قالوا: "عندما قال له الله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾[الحجر ٣٧]، -في سورة الحجر- ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر ٣٨] ولم يقل "إلى يوم يبعثون"، وقالوا: "الوقت المعلوم هو يوم النفخة، عندما تموت الناس كلها"، وهذا مرويٌّ عن السّدي وعن بعضهم رواه عن ابن عباس مثل أبي حاتم، وغيره وهذا اختيار الطبري، أن الله –

عز وجل- لم يعطه سؤله، أن اللعين كان يريد أن لا يذوق الموت، قضية الخلود وأنه لا يريد أن يذوق الموت قضية تهمه، بل هو دخل منها لآدم أصلًا، ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾[طه ١٢٠]، فهو عندما أراد أن يطلب هذا الطلب قال ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الأعراف ١٤]، عندما أعطاه الله -عزّ وجلّ- قال ﴿... مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[الحجر ٣٧-٣٨]، ونحن قلنا الآيات تأتي مطلَقة في موضع، تقيد في موطن آخر في القرآن، فأظن أن آية الحجر قيدت هذا الموطن ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[الحجر ٣٨]: أي يوم النفخة، لا إلى يوم البعث.

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾[الأعراف ١٥] قال عندما اطمئن وأخذ الوعد من الله، وهو يعلم أن الله -عزّ وجلّ- إذا أعطى وعدًا -سبحانه وتعالى- أمضاه، عندما اطمئن ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف ١٦-١٧]، سيدنا آدم عندما أذنب قال: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف ٢٣] أنا المخطئ، إبليس عندما أذنب قال يا رب أنت من أغويتني!! هذا الفارق، راجع نفسك عندما تخطئ، لا تقل: "ماذا أفعل إذًا؟؟، في الحقيقة الوضع هكذا ماذا أفعل أنا؟؟، أنا لست مخطئ"،

<u>المقصد</u>: هناك شخص عندما يذنب فتقول له: "حسنًا.. تب إلى الله"

- فيرد بماذا أفعل؟ ، هذه الشهوات في كل مكان ماذا أفعل؟، هل أنا ملاك ؟"

- وهناك شخص يقول لك: " أنا ظلمت نفسي، و قصرت، أنا من المخطئين ".

فهذه النزعة الشيطانية لا بد أن يتخلص منها الإنسان، الّذي دائمًا يعود باللوم على ربه في القدر وفي الشرع، عندما يخطأ خطأ شرعيًا تراه يرجع باللوم على ربه فيقول: "في الواقع هي الظروف هكذا.. ماذا أفعل إذًا؟!"، وإذا حدث قدر قال: "لماذا حدث هذا يا رب؟" ، يعود باللوم على ربه. لذلك سيدنا يونس -عليه السلام- وهو نبي ويعمل في الدعوة، ولم يترك البلدة من أجل عقد عمل مثلًا، بل ذهب يدعو إلى الله في بلدة أخرى، ثم يلتقمه الحوت، ويقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء ٨٧] ينزه الله ويقول أنا المخطئ، هذه الكلمة كلمة تُحفظ، حتى إذا مررت بمثل هذه الأزمات وأتاك شيطانك فلتلجأ إلى الله بها وتقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فالشيطان قال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى﴾[الأعراف ١٦]، أنت من أضللتني!، أنا كنت جيدًا أصلًا، أنا في الأصل جيد، ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى﴾؛ لذلك بعضهم قال: الباء هنا "باء السببية" أو "باء المجازاة"، يسمونها باء المجازاة، هذا مقابل هذا، "ألم تضللني؟، إذًا انظر ماذا سأفعل بهم"، -انظر كيف يتكلم مع ربه!!-، وبعضهم قال: هذه باء القسم، اللعين يقسم بربه، "والله وبالله لأغوينهم"، سواء باء السبب أو باء القسم فهذا يدل على شدة غيظه من آدم وبنيه. ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى﴾، نعم الله -عزّ وجلّ- يضل، لكنه -إبليس- يستحق ذلك.

الغواية هي الانصراف عن الطريق الصحيح، بعضهم قال: إن الفصيل وهو ابن الناقة عندما يشرب لبنًا كثيرًا أو يُمنع عن اللبن تمامًا فيهزل، في الحالتين عندما يموت بسبب قلة اللبن تمامًا أو شرب لبن كثير يقولون: "غوى الفصيل"، أي مات بسبب اللبن، سواء كان لبنًا فاسدًا أو لبنًا كثيرًا أو تعامل تعاملًا خاطئًا مع اللبن، يقولون: "غوى الفصيل".

((الامتلاء إلى حد الموت هذه غواية، فالامتلاء من الدنيا أو من الكبر إلى حد الضلال هذه غواية.))

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِى﴾ ماذا سيفعل؟ هو يريد أن يرد، أبى أن يسجد، قال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف ١٦-١٧]، إبليس قال ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾[الأعراف ١٦]، إبليس عندما أراد أن يقف في طريق بني آدم لم يقل "لأقفنّ" حسنًا..؟ ولم يقل "لأنامنّ". قالوا العرب متى تستعمل كلمة القعود؟، يقول عندما تحب أن تترصد لشخص، وتريد أن تقعد لتحفظ قواك، ولا تريد أن تنام لتستعد متأهبًا، فيختار لفظ القعود لشخص احتار أن يظل في مكان لا يريد إلا شيئًا واحدًا فقط، ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾[التوبة ٥] نحن لا نريد غير مقاطعة أهل الباطل، فالشيطان يقول ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾[الأعراف ١٦]، ليس ورائي إلا هم، أقعد لأجلهم.

فالشيطان ماذا يقول؟ ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، الشيطان قرر أن يقعد، القعود فيه طول الفترة وفيه التأهب، قالوا العرب تستعمل لفظ القعود من أجل أن يجمع بين شيئين، أنه يريد أن يحافظ على قوته من أجل أن يظل أطول فترة ممكنة، وفي ذات الوقت يظل متأهبًا، فيستعملون لفظة "القعود" لمن يجلس ليس وراءه شيء، يقول أنا قاعد هنا متفرغٌ تمامًا. ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا...﴾ ماذا؟،

﴿هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة ٢٤]، نحن لن ننتقل من هنا، فالتعبير عن الملازمة يأتي بالقعود. فقال أنا ملازم، أنا لن أذهب وأعود، بل أنا قاعد!!

ولما اختار إبليس اللعين أن يجلس؛. جلس على الصراط، فلم يجلس يستريح بعيدًا وإذا مر أحد على الصراط يقوم من مجلسه ويذهب له ليبعده عن الصراط.، لا قاعد، كما الواقف على باب المسجد، مثلًا لا يذهب وحين يرى أحدًا يُنادى عليه!. لا؛ وهذا من علو همته، نحن قلنا الشيطان لديه علو همة:

١- أنه طلب أن يُنظر إلى يوم البعث.

٢- أنه حين قعد، قعد على الصراط، فهو ليس بعيد.

٣- أنه اختار القعود لطول الفترة، كل هذا من علو همته.

٤- أيضًا في الحديث، النبي ﷺ يقول: (ما من مولود إلا وينخسه الشيطان)[٨]؛ فهو لا يبدأ معك مثلًا من مرحلة البلوغ، الشيطان لا يتركك إلى أن يصبح عمرك ١٢ أو ١٣ سنة ويبدأ يغويك....لا! (ما من مولود يُولد..) انظر علو الهمة، من أول لحظة الولادة.

٥- يريد غواية كل البشر.

٦- مثلًا لا يختار أن يبعدك عن طاعة واحدة...لا! قال النبي ﷺ (إن الشيطان قعد) نفس التعبير (قعد لابن آدم بأطرقه كلها)[٩] أي طاعة تريد أن تفعلها، تجد الشيطان قاعد لك، فقال النبي ﷺ (أراد أن يُسلم، قال: أتريد أن تُسلم وتذر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم، فأراد أن يهاجر، قال: أتريد أن

---

[٨] [عن أبي هريرة:] ما مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إلّا نَخَسَهُ الشَّيْطانُ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخًا مِن نَخْسَةِ الشَّيْطانِ، إلّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ. ثُمَّ قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {وَإِنِّي أُعِيذُها بكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ}[آل عمران: ٣٦]. وفي روايةٍ: يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخًا مِن مَسَّةِ الشَّيْطانِ إيّاهُ. وفي حَديثِ شُعَيْبٍ مِن مَسِّ الشَّيْطانِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٣٦٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦)

[٩] [عن سبرة بن الفاكه المخزومي الأسدي:] إنَّ الشَّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِهِ، فقعدَ لَهُ بطريقِ الإسلامِ، فقالَ: تُسلِمُ وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائِكَ وآباءِ أبيكَ، فعَصاهُ فأسلَمَ، ثمَّ قعدَ لَهُ بطريقِ الهجرةِ، فقالَ: تُهاجرُ وتدَعُ أرضَكَ وسماءَكَ، وإنَّما مثلُ المُهاجرِ كَمَثلِ الفرسِ في الطِّولِ، فعَصاهُ فَهاجرَ، ثمَّ قعدَ لَهُ بطريقِ الجِهادِ، فقالَ: تُجاهدُ فَهوَ جَهْدُ النَّفسِ والمالِ، فتُقاتلُ فتُقتَلُ، فتُنكَحُ المرأةُ، ويُقسَمُ المالُ، فعصاهُ فجاهَدَ، فقالَ رسولُ اللَّهِ: فَمَن فعلَ ذلِكَ كانَ حقًّا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، ومن قُتِلَ كانَ حقًّا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، وإن غرِقَ كانَ حقًّا على اللَّهِ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، أو وقصتهُ دابَّتُهُ كانَ حقًّا على اللَّهِ أن يُدْخِلَهُ الجنَّةَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح النسائي ٣١٣٤ • صحيح

تهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، فأراد أن يُجاهد، فقال: أتجاهد وتُنكح المرأة ويُيتم الأولاد ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد) كل اختيار تختاره في الطريق يأتيك الشيطان، كل اختيار!

- لذلك بعضهم قال إن معنى الصراط المستقيم هنا المقصود به: الهجرة؛ وأن هذا كان فيه إشارة لهجرة قد تحدث وأن الشيطان يريد أن يثبطكم عنها.
- وبعضهم قال: إن الصراط المستقيم هو القرآن.
- وبعضهم قال: الإسلام.
- وهو أعمّ من ذلك؛ ((فكل شيء يرضي الله سبحانه وتعالى هو من صراطه المستقيم)).

وعلم الشيطان أن لله صراطًا مستقيمًا ليس أعوج، علم الشيطان أن صراط الله -عزَّ وجلَّ- مستقيم فيقول ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف ١٦]، يقول: أنا حين آتي لأقعد سأقعد على الصراط المستقيم؛ بحيث أن أي أحد يريد أن يصل إلى الله سأقطع عليه الطريق، فهو يعمل قاطع طريق. فحينما يريد السالك إلى الله أن يسير ولا يتذكر قضية الشيطان ولا يتخذه عدوًا؛ هو يسير في غير الطريق، لماذا؟ لأن الله يقول لك أن الشيطان يقعد لك على الصراط المستقيم.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لام خص؛ أنا ليس عندي هدف غيرهم، عندما نقول: "هذا لك" فهذه لام الملكية، فأنا قاعد لهم ليس عندي غيرهم ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ هو لا يظل جالسًا فقط، لا يظل قاعدًا ويغوي من يعبر الصراط .. لا، بل هو يجلس ويخطط ويفكر كيف يغويهم ﴿ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾[الأعراف ١٧] انظر التفكير! ليس قاعدًا وحسب، وكلما دخل أحد إلى الطريق المستقيم يغويه! لا بل جالس يفكر، ويجرب كل المداخل.

- بعض العلماء قال: المقصود من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم إن كل لفظة منهم لها دلالة؛ وهذا مروي عن ابن عباس، فبعضهم قال:

- من الأمام: أي من الآخرة.
- ومن الخلف: أي من الدنيا.
- وعن اليمين: أي من الطاعات.

- والشمال: أو الشمائل أي السيئات.

فقالوا: يأتيهم من أمامهم يخوّفهم، يقول له: "إلى أين تذهب؟ أنت مجنون؟ هل أحد يفعل كذا ويتعلم ويجاهد؟! إلى أين أنت ذاهب!" يُخوّفه من السير في طريق الآخرة.

ويأتيه من خلفه: "ماذا تارك أنت؟! تعال، هل أحد يترك كذا؟! هل أحد يترك وظيفة كذا! لماذا تترك الدنيا هكذا؟ تتركها لمن؟! ولو لم تأخذ أنت الدنيا فمن سيأخذها!؟ لو لم تأخذها أنت ستتركها لمن؟ فلان لا يستحق شيئًا، أنت تستحق كل خير!". فيأتيك من خلفك: إلى أين تذهب؟!

﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: يأتيك كلما أردت أن تعمل طاعة، "ما هذا؟ هذا صعب جدًا! لا لا هل هذا دين هذا؟! لا يمكن لأحد أن يقوم بمثل ما تقوم به! ما هذا؟ هذا سفه، هذا لا يرضي ربنا!"

وعن شمائلهم: "الله! انظر الجمال"، عن الشمائل: يُزيّن لك المعصية، يُزينها لك؛ مثلما رأينا الشيطان كيف سوّل وزيّن الشجرة لأبينا آدم، لا بد أن يزين لك؛ الشيطان لا يقول لك: "افعل المعصية السيئة هذه!..." لا! لا بد أن يُزينها لك، يجعلها جميلة في عينك، يجعلها أمنيتك قبل أن يأمرك بالمعصية.

- وبعضهم عكس فقال: الأمام هي الدنيا والخلف هي الآخرة؛ أيًا كان.
- بعضهم قال: لا، ليس شرطًا أن يكون لكل لفظ دلالة، إنما المقصود هنا: أنه كما أن العدو يبحث عن أي مدخل يدخل إلى الذي يريد أن يفترسه، كذلك هو يبحث عن أي مدخل، وهنا قضية الإحاطة كما قال الله –سبحانه وتعالى– ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾[الكهف ٤٢] فلما أحيط بثمره لم يجد منفذًا للهروب؛ فالشيطان يريد أن يعمل دائرة عليك، مثل آخر السورة أيضًا هنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾[الأعراف ٢٠١] طائف بمعنى يدور ويبحث، يطوف، الشيطان قبل أن يختار السهم الذي يرميه في قلبك، يقعد فترة يطوف حولك –لا يعبدك– بل يطوف ليدرسك .. نفس الوصف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ نفس الوصف الذي قاله النبي ﷺ (لما صوّر الله –عزَّ وجلَّ– آدم جعل إبليس يطيف به)[١٠].

[١٠] [عن أنس بن مالك:] لمّا خلَق اللهُ آدَمَ جعَل إبليسُ يطيفُ به فلمّا رآه أجوفَ قال: ظفِرْتُ به خَلْقٌ لا يتمالَكُ ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦١٦٣ • أخرجه في صحيحه

يقعد: هذا مدخله الأموال، وهذا مدخله النساء، وهذا مدخله الكبر، وهذا ندخل له من مدخل كذا، فيدخل لكل إنسان من مدخله ... يقعد ليدرس، حتى يجد المدخل، يريد أن يحيط بك؛ حتى لا تتفلت منه، مثل خيوط العنكبوت يلف يلف يلف الخيوط عليك حتى تسقط. إذًا الشيطان يتعامل مع الموضوع على أنها معركة، وليست لعبة؛ لأن مستقبله انتهى، هو الشيطان مستقبله الأخروي انتهى؛ فهو لا يفكر إلا فيك، لأن أمره منتهي! لا يجلس مثلًا يجاهد نفسه ليصلي ركعتين أو يذكر الله، لا **هو ليس عنده شغل غيرك**، شغله أن يبعدك عن الصراط المستقيم، وقد أمهله الله إلى يوم النفخة الأولى...

العجيب أن اللعين هنا يقول لربنا ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف ١٧] فالعلماء يقولون: شاكرين ماذا بالضبط؟ ما النعمة التي يقصدها الشيطان بأنهم لن يشكروها؟ الطبري هنا اختار معنى رائعًا في الحقيقة.

عندنا قواعد في اللغة والتفسير أنه عندما يأتي أحيانًا مفعول به محذوف –أي أن الله تعالى لم يذكر أي نعمة التي لن يشكروها–؛ فمن الممكن أنه يفيد العموم؛ فبعضهم قال: أي لا يشكرون أعظم النعم أو معظم النعم أو أغلب النعم. أما الطبري هنا اختار نعمة معينة، قال: لا يشكرون إسجاد الملائكة الذي بسببه أنا طُرِدتُ، النعمة التي طردت من الجنة بسببها هم لن يحترموها ولن يعرفوا قيمتها، ولكن أنا سأجاهد لأجلها، انظر اللعين!

لذلك بعضهم قال: إن هذه الآية وغيرها هي تفسير قوله –سبحانه وتعالى– في سورة سبأ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[سبأ ٢٠]فإبليس ظنَّ ظنًّا معينًا؛ أن بعض الناس ستتبعه، إبليس ظن هذا الظن، وأعلن هذا الظن أمام الرب –سبحانه وتعالى– قال: "يا رب هناك ناس ستسمع كلامي أنا"؛ فقالوا: من أطاع الشيطان فقد صَدَقَ ظنُّ إبليس فيه، فلذلك حتى الطبري يقول: "**فهنيئًا لمن خيّب ظنّ اللعين فيه**". فالإنسان ممكن أن ينوي نية أن يُخيّب ظن اللعين؛ لن أكون من أتباع إبليس.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف ١٧] فكانت العقوبة قال بتأكيد ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾[الأعراف ١٨]بلا عودة، الذؤم قيل: من الذم وشدة الذم والعيب. مدحورًا: مطرودًا لعينًا لا عودة لك. ألم تقل أن هناك من سيسمع كلامك؟ الله غنيّ عن العالمين ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقيل: اللام هذه لام القسم، وقيل: لام الابتداء. ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾أي والله، يُقسمُ الله بنفسه –سبحانه وتعالى– كل من تبعك منهم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والعياذ بالله.

فالله –عزَّ وجلَّ– لا يُعْجزه أحد –سبحانه وتعالى– ، العاصي المتكبر الذي أعرض عن وحيه وشرعه الله –عزَّ وجلَّ– يلقيه في جهنم ولا يُبالي –سبحانه وتعالى–؛ فليس بأحد عزيز على الرب –سبحانه وتعالى–، الله –عزَّ وجلَّ– يُمهل ويُرسل الرسل ويُعطي الإنذار، ثم إذا أعرض الإنسان وتكبّر واستمر في إعراضه وتكبره يعذبه الله –عز وجل–.

أسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يستعملنا لنصرة دينه وألا يستبدلنا، أسأل الله –عزَّ وجلَّ– أن يجعلنا طائعين، المعادين لإبليس، المعادين لجنده والمعادين لذريته. اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.